المفسرون ومفهوم الخطاب القرآني

د. نور عبد الرشيد
جامعة المسيلة

إن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على الرسول ﷺ لتبليغه للعالمين، فمرتكز الرسالة يعتمد وظيفة البيان والتبليغ لمحتوى الخطاب الإلهي، وذلك بالتلقي الذي يعتمد الفهم والتأويل بشكل مباشر منه للحقائق الوجودية الخارجية التي تستند إليها آيات القرآن الكريم في معارفها، وشرائعها الإلهية، ووصوله الكامل ﷺ إلى عمقها وحقيقتها، ثم إيصالها وبيانها، معرفيا وتاريخيا بقدر طاقة التلقي البشري واستعداداته في عصره وما تلاه من العصور بمعنى أن الرسول ﷺ ليس مبلغا فحسب (للملفوظ القرآني) بما يحمل من دلالات، ومفاهيم بل بالإضافة إلى ذلك فعله النبوي ومراحل رسالته كحقيقة تاريخية تحمل المحتوى الدلالي للخطاب فهو قرآن حي في الحقيقة التاريخية الواقعية.

وذلك أن [البيان] من النبيﷺ أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيا.

الثاني: بيان معناه وتفسيره لمن إلى ذلك كما بين أن الظلم المذكور في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام-8). هو الشرك.

الثالث: بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن فنزل القرآن ببيانها كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره)[1].

والبيان في بداية تشكله كمفهوم في حقل الثقافة الإسلامية (كان يشمل كافة الأساليب والوسائل التي تساهم ليس فقط في تكوين ظاهرة البلاغة بل أيضا في كل ما يتحقق به التبليغ، تبليغ المتكلم مراده إلى السامع، ليس هذا فحسب بل إن البيان في اصطلاح رواد الدراسات البيانية اسم جامع لكل ما به تحقق عملية الإفهام، أو التبليغ، وبكل ما تتم به عملية الفهم والتلقي وبكيفية عام التبيين))[2].

وظيفة الخطاب القرآني ووظيفة الرسول ﷺ: لقد حدد الخطاب القرآني وظيفته وبيان طريق الحق في المعارف، والأحكام، والأخلاق، وحدد وظيفة الرسول بالتبليغ وبين الرسالة الإلهية بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل 44.

يقول الطاهر بن عاشور في تفسير الآية:

(الذكر: الذي شأنه أن يذكر: أي يتلى ويكرر، والذكر ما أنزل ليقرأه الناس ويتلوه تكرارا ليتذكروا ما اشتمل عليه).

التبيين: إيضاح المعنى.

وإسناد التبيين إلى النبي ﷺ باعتباره مبلغا هذا البيان للناس كافة، واللام في (لِتُبَيِّنَ) على هذا الوجه لذكر العلة الأصلية في إنزال القرآن.

وإنما أتى بلفظه مرتين للإيماء إلى التفاوت بين الإنزالين.

– فإنزاله إلى النبي ﷺ مباشرة.

– وإنزاله إلى إبلاغه إليهم.

فالمراد بالتبيين على هذا النحو تبيين ما في القرآن من المعاني، وتكون اللام لتعليل بعض الحكم الحافة بإنزال القرآن فإنها كثيرة، فمنها أن يبينه النبي ﷺ فتحصل فوائد العلم والبيان.

وعطف (لعلهم يتفكرون) حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكر الناس فيه وتأملهم فيما يقربهم إلى رضى الله تعالى.

– فعلى الوجه الأول في تفسير (لتبين للناس) يكون المراد: أن يتفكروا بأنفسهم في معاني القرآن وفهم فوائده.

وعلى الوجه الثاني: أن يتفكروا في بيانه ويعوه بأفهامهم)[3].

مما سبق يتبين لنا أن إنزال الذكر إلى الرسول ﷺ وتنزيل الكتاب إلى الناس واحد بمعنى أن تنزيله إلى الناس ليأخذوا به، ويعملوا بشرائعه بعد بيان الرسول ﷺ التدريجي إليهم، وهذا هو غرض الإنزال المصرح به في الآية رجاء أن يتفكروا فيما يبينه الرسول ﷺ لهم من المعارف والمصالح، ويتلقى الناس الذكر فيهتدوا به.

فيكون المراد بالذكر المنزل لفظ القرآن الكريم، وبما نزل إليهم معاني الأحكام والشرائع والمعارف الإلهية، وأحوال التاريخ الإنساني، وأخبار المستقبل، وأنباء الآخرة، هذا كله في بيان الرسول ﷺ المتلقى بالمشافهة، ومعايشة زمن التنزيل ومكانه، والحركة النبوية الملابسة لتنزيل الخطاب القرآني، أما بعد عصر الرسولﷺ فالأخبار المدونة الواردة عنه بالتواتر فهي قرينة لكونها نقل وأخبار عن بيان الرسول ﷺ من جهة والواقع التاريخي المتطور الذي أسسه الرسول ﷺ من جهة أخرى ومن هذين الجهتين تشكل علم التفسير الذي نشأ بعد ذلك وتطور.

تعريف التفسير والتأويل:

التفسير في اللغة: مصدر على وزن (تفعيل) وفعله الثلاثي (فسر) يقال: فسر الشيء تفسيرا والفعل الماضي من التفسير هو الرباعي (فسّر)، يقال فسر الشيء تفسيرا، والجذر الثلاثي لكلمة هو (ف.س.ر) قال الإمام أحمد بن فارس عن الفسر: (الفسر: كلمة تدل على بيان الشيء وإيضاحه تقول: فسرت الشيء وفسر له)[4].

إن كل تصريفات مادة (فسر) معناها الأصلي لا يخرج عن البيان، والكشف والتوضيح، فتفسير الكلام: هو بيان معناه، وإظهاره وتوضيحه، وإزالة إشكاله والكشف عن مراده.

تعريف التفسير: وردت عدة تعاريف لعلم التفسير حسب الضوابط المنهجية لكل مفسر ومنها:

الأول: تعريف أبي حيان الأندلسي[5]:

"التفسير: علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وذلك".

الثاني: عرفه محمد الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره:

(والتفسير في الاصطلاح نقول: هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع... وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه وما يستنبط منه)[6].

وأورد السيوطي في الإتقان[7] تعريفين نسب أحدهما إلى الزركشي، ولم ينسب الآخر وهما:

الثالث: قال الزركشي:

"التفسير: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ".

الرابع: قال بعضهم: هو علم نزول الآيات وَشُؤُونِها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة، فيها وَمَكِّيُهَا، وَمَدَنِيُّهَا، ومحكمها،ومتشابهها، وناسخها، ومنسوخها وخاصها، وعامها، ومطلقها، ومقيدها، ومجملها، ومفسرها، وحلالها، وحرامها ووعدها، ووعيدها، وأمرها، ونهيها، وعِبَرُها، وأمثالها.

نلاحظ في التعاريف السابقة أمر مشترك وهو اعتبار محورية النص في انطلاق عمل المفسر التي هي الأبانة لمدلول الكلام القرآني، والكشف عن المراد به تعريفا واستنباطا، كما هو في التعاريف:

- كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها ... ومعانيها التي تحمل عليها.
- ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه وما يستفاد منه.
- بيان معانيه،واستخراج أحكامه، وحكمه.
- محكمها، ومتشابهها، وناسخها، ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها، ومفسرها (وجوه الدلالة القرآنية).

والتمييز في تفصيل وجوه الدلالة القرآنية وسياقها، والمعاني القرآنية المدلول عنها في حد ذاتها بين الإجمال والتفصيل فالإجمال في التعريف الأول والتوسط في التعريف الثاني بين دلالة منطوق القرآن ودلالة المفهوم والتفصيل في التعريفين الأخيرين في طرق الدلالة بين الخاص والعام والمقيد والمطلق والمجمل والمفسر وكذلك بالنسبة لقرائن الدلالة من عناصر التواصل ومقام التخاطب في معرفة أسباب النزول المكي منها والمدني ومعرفة الناسخ، والمنسوخ.

أما فيما يخص المعاني القرآنية وعالمه الدلالي فبين التعريف الثالث هذه المعاني بقوله (استخراج أحكامه وحكمه) أي بيان التشريع ومقاصده في التعريف الرابع بقوله (حلالها وحرامها، ووعدها، ووعيدها، وأمرها، ونهيها، وعبرها وأمثالها).

ومما سبق نخلص إلى التفسير: وهو بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستنبط منها باعتبار أسباب النزول، ومقاصد الخطاب الدينية.

وعليه تعتبر قضية الدلالة في الخطاب القرآني، أي العلاقة بين ملفوظه، ومعناه موضوع المفسرين الأساسي مع اعتبار مقتضيات المقام عامة في التبليغ، شروط منهجية في قراءة وتفسير الخطاب وتوجيه دلالته، فاتجهوا نحو البحث الدلالي في نظام دلالة الخطاب، ومستوياتها، وسياقاتها وآليات الكشف عنها، وعلاقة نصوصه بعضها ببعض، انطلاقا من مبدأ (أن القرآن يفسر بعضه ببعض)، فصنفوا العام والمطلق والمجمل في مواضع منه، والتخصيص، والتقييد، والتفصيل في مواضع أخرى منه بحسب المواضعة، ونظام اللغة (اللسان العربي)، بالإضافة إلى الاستعمال القرآني لها فحددوا ما يسمى بدلالة المنطوق، ودلالة المفهوم، والمقصود، والعام، والخاص والمطلق، والمقيد، والمجمل، والمفصل، وبينوا طرائق الكشف بالتعريف اللفظي والتوضيح أو الاستنباط والاستدلال، وعلى سبيل المثال تصنيف أنواع الدلالة القرآنية أي اللفظ باعتبار طريق دلالته على المراد منه:

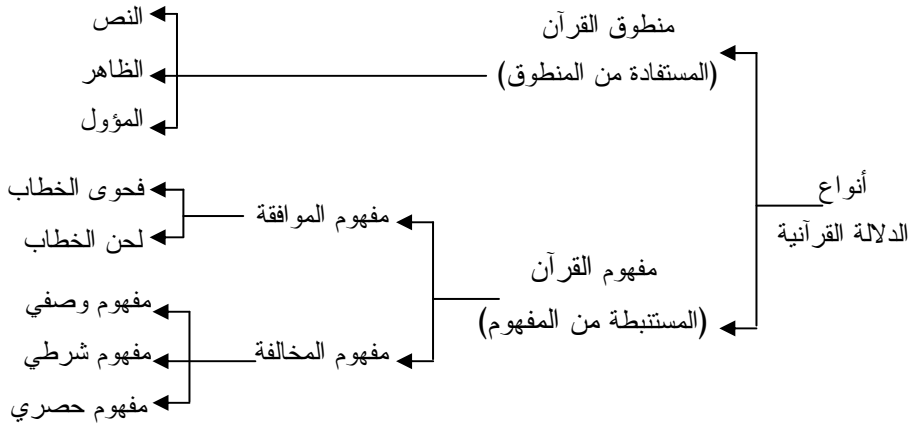

*تعريف المنطوق: ما دل عليه اللفظ في محل النطق فلاحظوا في تعريفه أن التلفظ بالآية هو وحده منفذها إلى دلالته وأنواعه هي النص والظاهر والمؤول.

– النص: الذي لا يحتمل اللفظ غيره.

كدلالة قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ البقرة 196.

– الظاهر: الذي يفيد معنى متبادر راجحا مع احتمال معنى آخر احتمالا مرجوحا، والظاهر نوع من دلالة المنطوق لأن دلالته على معناه الراجح، إنما يتم في محل النطق نفسه لأن الراجح من اللفظ المنطوق يقدم على مرجوحه.

كدلالة قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ البقرة 173.

أفاد معنى راجح متبادر، وهو الظالم يدعمه سياق الآية.

ومعنى مرجوح وهو الجاهل.

– المؤول: الذي يستحيل حمل معناه على ظاهره فيصرف إلى معنى آخر يعينه السياق وهو كذلك نوع من المنطوق، لأن ظاهره المستحيل مرجوح معناه، ومعناه الذي يعينه السياق راجح يكاد اللفظ نفسه ينطق به، وينبأ عنه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ الحديد4.

فإن حمل المعية على قرب الله بذاته مستحيل.

أما تأويلها بالقدرة، والعلم، والرعاية، فمعنى يصل إلى النص عن طريق اللفظ المنطوق.

* تعريف المفهوم: ما دل عليه اللفظ في غير محل النطق فلاحظوا في تعريفه أن المعنى الذهني أو دلالة المقصود هو المنفذ الوحيد إلى دلالته، ويسمى مفهوم الموافقة إذا وافق المنطوق بحكمه ومفهوم المخالفة إذا لم يوافق به، ولكل من هذين المفهومين فروع تتعلق به.

أ– مفهوم الموافقة:

– فحوى الخطاب: إذا دل على المعنى الأول بالأخذ والاعتبار كدلالة قوله تعالى: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ الإسراء23، على تحريم ضرب الوالدين لأنه أولى بالتحريم من قول أف لهما.

– لحن الخطاب: إذا دل على المعنى المساوي كدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ النساء10.

دل على تحريم إحراق أموال اليتامى لأن الإتلاف هو المقصود بالتحريم سواء حصل بالأكل أو بالإحراق، فكل منهما مساو للآخر في المقصود.

ب– مفهوم المخالفة:

– المفهوم الوصفي: وقد يتوسع فلا يقتصر فيه على الوصف، والنعت بل يدخل فيه كل ما أفاد الوصفية، والتحديد كالحال، والظرف، والعدد، وغيرها من القيود.

مثال النعت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾ الحجرات6. مفهوم المخالفة: أنه لا يجب علينا أن نتثبت في نبإ غير الفاسق.

– المفهوم الشرطي: كدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ الطلاق6.

فاشتراط الحمل يفيد أن غير الحاملات لا يجب الإنفاق عليها.

– المفهوم الحصري: كقوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة5.

أي لا نعبد أحدا سواك ولا نستعين إلا بك.[8]

التأويـــل:

التأويل في اللغة: مصدر على وزن (تفعيل) وفعله الماضي رباعي، أوّل يؤول تأويلا وجذر الكلمة الثلاثي (أول)، قال الإمام ابن فارس: "عن (أول) أصلان هما ابتداء الأمر وانتهاؤه ... من استعماله في الابتداء قولك الأول: مبتدأ الشيء ومؤنثه أولى وجمعه أوائل، ومن استعماله في انتهاء الأمر: الأيل .. قولهم آل بمعنى رجع ومن هذا الباب (الأول) بمعنى الانتهاء والمرجع، قولهم تأويل الكلام وهو عاقبته وما يؤول وينتهي إليه"[9].

فمعاني التأويل– المرجع والعود والمصير.

قال الإمام الراغب الأصفهاني في المفردات عن (الأول):

((الأول): الرجوع إلى الأصل ومنه الموئل وهو الموضع الذي يرجع إليه)[10].

والتأويل في تعريف الراغب الأصفهاني: (هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علما كان أو فعلا).

فتأويل الكلام هو رده إلى الغاية المردة منه، وإرجاعه إلى أصله، وإعادته إلى حقيقته التي هي عين المقصود منه، وبعبارة أخرى تأويل الكلام هو رد معانيه وإرجاعها إلى أصلها، ومرجعها الذي تحمل عليه، فالأصل أن يكون للكلام الصادق حقيقة مرادة منه، وغاية ينتهي إليها، ومرجع يرجع إليه، وإلا كان كاذبا لا رصيد له من الحقيقة، وهذه الحقيقة التي لابد أن يؤول ويرجع إليها الكلام الصادق هي عين المقصود به والغاية المرادة منه.

وبناء عليه فالكلام إما أن يكون خبرا فحقيقته وغايته المرادة منه هي وقوعه وحدوثه فعلا وفق ما ورد في الكلام، وإما أن يكون طلبا يتضمن فعل شيء، أو تركه، وحقيقته تنفيذه العملي وتحقيقه.

التأويل عند المتقدين والمتأخرين: بالنسبة للمتقدمين: كان التأويل عندهم بمعنيين:

– الأول: بيان ما يؤول وينتهي إليه الكلام وتحديد حقيقة الخبر بتحقق وقوعه في عالم الواقع، والتحقيق العملي للطلب، وهذا معناه في القرآن الكريم.

– الثاني: التأويل بمعنى تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه وهو عند معظم المفسرين وفي مقدمتهم الإمام ابن جرير الطبري.

أما التأويل عند المتأخرين من الأصوليين والمتكلمين والمتصوفة فهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به والمؤول عليه وظيفتان هما:

أولا: بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه وقرأه من اللفظ.

ثانيا: بيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر.

وقد جمع المعاني الثلاثة للتأويل شارح الطحاوية علي بن أبي العز بقوله: فالتأويل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل الخبر هو عين المخبر به، وتأويل الأمر هو الفعل المأمور به، وأما ما كان خبرا كالأخبار عن الله عز وجل، واليوم الآخر، فهذا قد لا يعلم تأويله الذي هو حقيقته وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، لكن لا يلزم عدم العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه، فما في القرآن آية إلا وهو يجب أن يعلم ما عنى بها، وإن كان تأويلها لا يعلمه إلا الله.

هذا معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف.

والتأويل في كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه يريدون به تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه هذا اصطلاح معروف وهذا التأويل يحمد حقه ويرد باطله والتأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك، وهذا هو التأويل الذي يتنازع الناس فيه في كثير من الأمور الطلبية والخبرية فالتأويل الصحيح منه هو الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد)[11].

إن غاية تأويل الخطاب القرآني هو التوصل إلى فهم أفضل لكيفية فهم وتفسير المتلقي في تصوره للوجود وسلوكه الاجتماعي باعتبار قصد الخطاب من المعارف الإلهية، والتشريع الإلهي باعتبار القصد هو المعنى الذي تضمنه الخطاب ما بين مرسل، ومستقبل، وهذا القصد هو اسم للصورة الذهنية لا للموجودات الخارجية لأن المعنى عبارة عن الشيء الذي عناه العاني وقصده القاصد، وذلك بالذات هو الأمور الذهنية وبالعرض الأشياء الخارجية فإذا قيل إن القائل أراد بهذا اللفظ هذا المعنى فالمراد أنه قصد بذكر اللفظ تعريف ذلك الأمر المتصور.

وإذا كان البيان والدلالة على أربعة أوجه، كما قال أبو الحسين إسحاق ابن وهب الكاتب في كتابه (البرهان في وجوه البيان) هي:

– بيان الأشياء بذواتها، وإن لم تُبِنْ بلغاتها، وهو بيان الاعتبار.

– البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكرة واللب، وهو بيان الاعتقاد.

– البيان الذي هو نطق باللسان، وهو بيان العبارة.

– البيان بالكتاب: الذي يبلغ من بعد أو غاب[12].

وفي حَدِّ المعنى وتكونه وصيرورته وشروط التبليغ، وأنظمته يقول حازم القرطاجني:

(إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن:

– فإذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه.

– فإذا عُبِّرَ عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المُعَبَّر به هيئة تلك الصورة الذهنية في إفهام السامعين، وأذهانهم فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ.

– فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ لمن لم يتهيأ له سمعها من التلفظ بها صارت رسوم الخط تقيم في الإفهام هيآت الألفاظ فتقوم بها في الأذهان صور المعاني فيكون له أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها)[13].

وإذا كان نجاح التواصل في المستوى الثاني مستوى التعبير عن المعنى في بيان العبارة شركة بين حسن بيان المرسل، وحسن الفهم من جهة المستقبل كان وصف الكلام والعبارة بحسن الدلالة وتمامها فيما كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى، وأزين، وأنقى، وأعجب اشترط لها عبد القاهر وحددها بهذا التحليل:

(اعلم أن لكل نوع من المعنى:

– نوعا من اللفظ هو به أخص وأولى.

– وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم وهو فيه أجلى.

– ومأخذا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعى، والنفس إليه أميل.

– وإذا كان الشيء متعلقا بغيره، ومقيسا على ما سواه كان من خير ما يستعان به على تقريبه من الإفهام وتقريره في النفوس أن يوضع له مثال يكشف عن وجهه ويؤنس به ويكون زماما عليه يمسكه على المتفهم له والطالب له)[14].

فإذا كان المعنى المدلول عليه والمقصود بلفظ القرآن كما يقول عبد القاهر الجورجاني:

(الحجج والبراهين، الحكم والآداب والترغيب والترهيب والوعد والوعيد والوصف والتشبيه والأمثال وذكر الأمم والقرون واقتصاص أحوالهم والنبأ عما جرى بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام وما لا يحصى ولا يعد)[15].

راعى اختيار معجما قرآنيا عربيا هو به أخص، وأولى وضروبا من العبارة أقوم، وأجلى في تأدية المعنى ومآخذ وجهات للمعنى تراعى مقبولية المتلقى ومستوى من الفنية والأدبية في التصوير والتمثيل تحيط بأبعاده، كان إدراك معاني القرآن أي إدراك الممثل من المثال المشكل من الألفاظ المنطوق لهيآت المعنى المدلول بها هو التأويل.

والفهم المذكور والتأويل ليس من قبيل المعنى المراد من اللفظ، بل هو الأمر والمرجع الذي يبنى عليه الكلام.

(أو بمعنى آخر التأويل هو أمر خارجي من حيث هو مرجع ومآل لأمر خارجي آخر، فتوصيف آيات الكتاب بأنها ذات تأويل بالمعنى الأول المذكور سابقا من جهة:

– حكايتها عن معان خارجية كما في الأخبار.

– أو تعلقها بأفعال وسلوك خارجي كما في الإنشاء.

لها تأويل بحال متعلق الشيء لا بحال نفس الشيء وبنوع من التفصيل للإجمال السابق نقول:

إذا كان الكلام القرآني:

أ- حكما إنشائيا كالأمر والنهي: فتأويله المصلحة، والغاية التي توجب إنشاء الحكم وتشريعه لاستقامة الاجتماع البشري، فتأويل قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ مثلا هو الحالة النورانية الخارجية التي تقوم بالمصلي في الخارج، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، لا الأمر التشريعي الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾.

ب- وإذا كان الكلام القرآني خبريًّا.

- فإن كان إخبارا عن الحوادث الماضية: كان تأويله نفس الحادثة الواقعة في الظرف الماضي، كالآيات المشتملة على أخبار الأنبياء، والأمم الماضية، فتأويلها نفس القضايا الواقعة في الماضي.

- وإن كان إخبارا عن الحوادث والأمور الحالية، والمستقبلية فهو على قسمين:

- فإما أن يكون المخبر به من الأمور التي تناله الحواس أو تدركه العقول، كان أيضا تأويله ما هو في الخارج من القضية الواقعة كقوله تعالى:﴿الم غُلِبَتْ الرُّومُفِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾. الروم الآية.

وإن كان في الأمور المستقبلية الغيبية التي لا تناله حواسنا الدنيوية ولا يدرك حقيقتها عقولنا: كالأمور المربوطة بيوم القيامة، ووقت الساعة، وحشر الأموات والجمع، والسؤال، والحساب، وتطاير الكتب، أو كان مما هو خارج من سنخ الزمان وإدراك العقول كحقيقة صفاته وأفعاله تعالى.

فتأويلها أيضا نفس حقائقها الخارجية.

والفرق بين هذا القسم الأخير أعني (الآيات المبينة لحال صفات الله تعالى، وأفعاله وما يلحق بها من أحوال يوم القيامة، ونحوها، وبين الأقسام الأخرى أن الأقسام الأخرى يمكن العلم بتأويلها بخلاف هذا القسم فإنه لا يعلم حقيقة تأويله إلا الله تعالى نعم يمكن أن يناله الراسخون في العلم بتعليم الله تعالى بعض النيل على قدر ما تسعه عقولهم، وأما حقيقة الأمر الذي هو حق التأويل فهو مما استأثر الله سبحانه بعلمه)[16].

ونخلص مما سبق إلى أن قضية الدلالة والتأويل في الخطاب القرآني هي موضوع المفسرين باعتبار أن الخطاب القرآني رسالة دينية بلسان عربي مبين وأن أول شرط لفهمه هو المعرفة بهذا اللسان العربي، والتقيد بالمعنى الذي تدل

عليه كلماته، وعباراته، وطرق التواصل بينهم، وهذا بشرط المواضعة، وهذا لا يعني الاكتفاء بمعرفة معنى العبارات كما استعمله العرب زمن التنزيل (أي نظام اللغة)، بل بالإضافة إلى ذلك المعاني الفنية التي استعملها خصوص النظم القرآني في الدلالة على معانيه، ومعرفة مقاصد الخطاب في مقامات التلفظ المختلفة وملابساته لتستكمل قراءة الخطاب، واكتشاف دلالاته والوصول إلى مغزاه.

وهذا ما طرحه حامد أبو زيد:

(هناك في تراثنا القديم وعلى مستوى تفسير النص الديني (القرآن) تلك التفرقة الحاسمة بين ما أطلق عليه التفسير بالمأثور، وما أطلق عليه التفسير بالرأي، أو التأويل، وذلك على أساس أن النوع الأول من التفسير يهدف إلى الوصول إلى معنى النص عن طريق تجميع الأدلة التاريخية واللغوية التي تساعد على فهم النص فهما موضوعيا، أي كما فهمه المعاصرون لنزول النص من خلال المعطيات اللغوية التي يتضمنها النص وتفهمه الجماعة، أما التفسير بالرأي (التأويل) فقد نظر إليه على أساس أنه تفسير غير موضوعي، لأن المفسر لا يبدأ من الحقائق التاريخية والمعطيات اللغوية بل يبدأ بموقفه الراهن (وجوديا ومعرفيا) محاولا أن يجد في القرآن (النص) سندا لهذا الموقف)[17] وبالتالي تطرح قضية التفسير والتأويل في التصور النقدي للخطاب القرآني.

المرسـل	الخطاب القرآني	المتلقي
(القصد)	**(التشكيل)**	**(التفسيروالتأويل)**

المقـــــــــام

(السيــــــاق والتناص الداخلي)

الهوامش:

1- أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم الجوزية، تح: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديث، مصر، ط 1969، ج2، ص:322.

2- بنية العقل العربي: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6 2000، ج2، ص:14.

3- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، الدار التونسية للنشر، 1984، ج13، ص:163.

4- معجم مقايس اللغة: ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، مصر، 1981 ج4، ص: 504، مادة: (فسر).

5- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، 1992، ج1، ص:5.

6- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس، ب.ت، ج1 ص:12.

7- الإتقان في علم القرآن: السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، مصر د.ت، ج2، ص:119.

8- مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، لبنان، ط13، 1971، ص: 299-300-301 بتصرف.

9- مقاييس اللغة: ابن فارس، 158/1.

10- مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، ت: صفوان داودي، دار العلم، دمشق، د.ت ص:636.

11- شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ج1، ص:249.

12- نقد النثر (جزء من البرهان): إسحاق بن وهب، وزارة المعارف، مصر، ط1939، ص:3.

13- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني، ت: محمد الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986، ص:18-19.

14- الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل): عبد القاهر الجرجاني، ت: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، 1968، ص: 107.

15- م، السابق، ص:131.

16- تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميـــة قم، د.ت، ج4، ص: 229.

17- إشكاليات القراءة وآليات التأويل: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3 1994، ص:15.